المستقرات العربية الإسلامية
في رحلة ابن جبير (578 هـ - 581هـ)

خليف مصطفى غرايبة*

ملخص: ابن جبير الرحالة العربي المسلم انطلق في رحلة الحج إلى مكة من غرناطة بالأندلس في التاسع عشر من شوال عام 578هـ ، عَبَر خلالها البحر المتوسط إلى البر العربي الإسلامي في كل من إفريقيا وآسيا، واستغرقت رحلته سنتين وثلاثة أشهر، شاهد خلالها العديد من المستقرات البشرية المتفاوتة في حجومها ووظائفها وأحوالها السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع مسيرة ابن جبير في رحلته لحصر أعداد المستقرات البشرية، وعمل تصنيف لحجومها، ورسم الخرائط التي تشير إلى مسار رحلته في البرّين الإفريقي والآسيوي. ولتحقيق الهدف السابق اتبع الباحث المنهج التصاعدي التتبعي لمسيرة الرحلة مكاناً وزماناً. وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج، أهمها: تصنيف المستقرات العربية الإسلامية إلى أربع مراتب هي: محطات القوافل والقرى والبلدات والمدن، وكان للمدينة العربية الإسلامية شخصيّة متميّزة في عوامل نشوئها وتخطيطها؛ حيث كان السور والمسجد الجامع والسوق والأبنية البيئية أبرز مكوناتها.

المصطلحات الأساسية: المستقرات، الرحلات، طرق الحج، رتب المستقرات، المواضع والمواقع، البر الإفريقي الآسيوي.

---

* قسم العلوم الأساسية – كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية – الأردن

المقدمة:

برع العرب المسلمون في مختلف العلوم خلال الفترة الممتدة من بداية قيام الدولة الإسلامية الأولى حتى سقوط الخلافة العباسية، وكان لعلم الجغرافيا اهتمام خاص من قبلهم في تخصصات ومجالات متعددة، منها الرحلات الجغرافية.

وكانت الرحلة تمثل الوجه المشرق للجغرافيا العربية، وكان للرحالة العرب الفضل في اتساع معرفة الجغرافيين بأرجاء العالم المعروف، لأسباب عديدة، أهمها (عبدالعال الشامي، 1981):

1- انتشار الإسلام واتساع أراضي الخلافة الإسلامية التي امتدت من حدود الصين شرقاً حتى سواحل المحيط الأطلسي والأندلس غرباً، ومن البلقان شمالاً حتى أواسط إفريقيا جنوباً، فضلاً على الجزر المنتشرة في البحر المتوسط والمحيط الهندي.

2 – بعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور دينهم والدعوة إليه، في الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام سواء في مكة أم المدينة أم المدن التي ازدهر فيها العلم كالقاهرة وبغداد ودمشق وغيرها، وكانت تلك الرحلات الدعوية أو العلمية تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة (صلاح الدين الشامي، و وزين الدين عبدالمقصود، 1982).

3 – يعد الحج إحدى فرائض الدين الإسلامي، وكان المسلمون يفدون من مختلف دول العالم الإسلامي المترامية الأطراف، وتأخذ رحلة الحج منهم أشهراً عديدة في سفرهم إلى الديار المقدسة، مما يدفعهم إلى التزود بالمعلومات الجغرافية.

وكانت الملاحظة الشخصية أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية لدى هؤلاء الحجاج، فقدموا عن المناطق التي ارتادوها والطرق التي سلكوها وصفاً جغرافياً مفصّلاً سهّل تعرفها ورسم خرائط لها.

1 – منطقة الدراسة:

تتمثل منطقة الدراسة في القسم البري من مسار رحلة ابن جبير (خريطة 1) الذي يوجد في البر العربي الإسلامي في كل من إفريقيا وآسيا ابتداء من

الإسكندرية على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط مروراً بالعديد من المستقرات العربية الإسلامية في كل من مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق وديار ربيعة وبكر والشام، وانتهاء بمدينة عكة (عكا) على الساحل الشرقي للبحر المتوسط بمسافة 4600 كم تقريباً[1].

2 – موضوع الدراسة وأهميته:

شكلت الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق بشكل عام والرحلات الحجازية بشكل خاص مصدراً مهماً للمعلومات التاريخية والاقتصادية والبشرية والإنثروبولوجية والطبوغرافية عن جميع مناطق العالم الإسلامي في أواسط آسيا وشمالها، وغرب إفريقيا، وسودان وادي النيل، وجزر المحيط الهندي، والساحل الشرقي لإفريقيا، والشرق الأقصى وسواحل أوروبا الشمالية الغربية (صبري الهيتي وآخرون، 1985).

ومن بين الرحالة الحجاج الذين كان لهم دور بارز في وصف المناطق التي زاروها في أثناء رحلتهم للحج ابن جبير؛ إذ تمثل رحلته (التي ابتدأت في 19 شوال عام 578هـ وانتهت في 22 محرم عام 581هـ) مظهراً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية لما لها من دور مهم في توثيق الصلات العلمية بين الغرب الإسلامي (الأندلس) وبلاد الشام، ونظراً لما تتمتع به رحلته هذه من مكانة عالية بين الرحلات المغربية، فقد توجه إليها الاهتمام في هذه الدراسة ولا سيما أن الرحلة تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها (عبدالواحد طه، 2005).

والواقع أن رحلة ابن جبير تعد من المصادر الأساسية لتاريخ أي بلد مر به هذا الرحالة؛ لأنه كان دقيق الملاحظة، صائب النظر، يهتم بتسجيل كل ما يراه بأسلوب سهل صادق يبعث على الثقة، وقد كان لملاحظاته ومشاهداته أهمية كبيرة في تاريخ هذه البلاد.

3 – أهداف الدراسة:

نظراً لأهمية هذه الرحلة وكثرة المستقرات العربية الإسلامية التي ارتادها ابن جبير جاء هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية:

(1) قام الباحث بتقدير هذه المسافة من خلال مقياس الرسم للخرائط المرفقة، حيث كانت مسافة رحلته في مصر 1550 كم، وفي شبه الجزيرة العربية 1300كم، وفي العراق 650 كم، وفي ديار ربيعة وبكر 400 كم، وفي الشام 700 كم، تقريباً.

1 – تتبع مسيرة الرحلة مكاناً وزماناً.

2 – حصر أعداد المستقرات العربية الإسلامية التي مر بها ابن جبير بمراتبها الأربع كما ذكرها في رحلته(محطة وقرية وبلدة ومدينة).

3 – إجراء تصنيف لهذه المستقرات بحسب مراتبها وحسب مواضعها ومواقعها.

4 – حصر المستقرات العربية الإسلامية التي قام بها مدة زمنية أطول، وتتمثل في المدن العربية الإسلامية الكبيرة ذات الشخصيّة المتميّزة بكيفية تخطيطها في موضعها وخدماتها وبما يتناسب ورسالة الإسلام[2] كالقاهرة ومكة المكرمة وبغداد وحلب ودمشق وغيرها.

5– رسم خريطة عامة لمسار الرحلة ورسم خرائط تفصيلية لكل مرحلة من مراحلها وبحسب توزيعها الجغرافي عبر البر العربي في آسيا وإفريقيا.

4 – منهجية الدراسة:

ولتحقيق الأهداف السابقة اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التحليلي التصاعدي التتبعي الذي يعتمد على الالتزام بالتسلسل والتتبع الزماني والمكاني بشكل تصاعدي لمسار رحلة ابن جبير من حيث الزمان أو الفترة التي قضاها في رحلته، ومن حيث المكان أو الأماكن والمواقع الجغرافية التي مرّ أو استقرّ بها (المستقرات العربية الإسلامية)[3]، وذلك في البر العربي الإسلامي في كل من

(2) لقد شهدت المدينة العربية الإسلامية هجوماً واضحاً من عدد كبير من المستشرقين من أمثال سوفاجيه (على سبيل المثال لا الحصر) الذي هاجم المدن الشامية، وقد ادعى بعضهم أن العرب قد دمروا المدن القديمة الموجودة وأضروا بهيئتها العمرانية التخطيطية (في أثناء انتشار الإسلام)، في حين أنصف آخرون المدينة العربية الإسلامية بشخصيتها المتميزة، التي تكمن في أداء وظيفتها على نحو ما يريده الإسلام منها، وللمزيد انظر:

مقال د. عبدالجبار ناجي، **موقف الاستشراق الأمريكي من دراسة المدينة العربية الإسلامية**، على موقع http://www.balagh.com/mosoa/garb

(3) المنهج التصاعدي التتبعي vertical treatment approach هو المنهج الذي يقوم على التسلسل والتتبع الزمني للسنوات من الأقدم إلى الأحدث تاريخياً (إذا كان البحث في مجال التاريخ) أو التسلسل والتتبع المكاني للمواقع الجغرافية (إذا كان البحث في مجال الجغرافيا)، وفي حالة رحلة ابن جبير فإن البحث في مجال أدب الرحلات، وهو مجال تاريخي جغرافي؛ لذلك فإن أنسب المناهج في هذه الحالة هو المنهج التصاعدي التتبعي زماناً (للسنوات) ومكاناً (للمواقع الجغرافية)، وهذا ما اتبعه الباحث لمسار رحلة ابن جبير زماناً ومكاناً.

ولمعرفة المزيد عن هذا المنهج انظر: خليف غرايبة (1998). **الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون**. إربد: مطبعة الروزنا: 27.

إفريقيا وآسيا، وتوقيع المستقرات التي ارتادها على خط سير الرحلة بهدف التوصل إلى رسم الخريطة العامة لمسار الرحلة والخرائط التفصيلية لجميع المستقرات في المراحل المتعددة لهذه الرحلة.

5 - الدراسات السابقة:

تناولت دراسات عديدة رحلات ابن جبير بالتحقيق والتحليل، ومن أهم الذين قاموا بتحقيق رحلة ابن جبير: (حسين نصار، 1955) و(مكلة أماري، 1994) و(إبراهيم شمس الدين، 2003)، أما (محمد عزب، 2000) فقد قام بعملية ضبط ووضع فهارس لرحلة ابن جبير. وأهم الدراسات التي تناولت رحلة ابن جبير أوأجزاء منها دراسة: (محمد زيادة، 1939) وهي دراسة عامة، و(كامل كيلاني، 1950) وهي عن رحلة ابن جبير في مصر والحجاز، و(عبدالقدوس الأنصاري، 1976) وهي دراسة تحليلية مهمة للرحلة، و(إبراهيم عوض1992) وهي دراسة في الأسلوب، و(رايت، 1852) و(عبدالكريم خليفة، 1998) وهي دراسة عامة كذلك، و(محمد العاملي، 1999) عن النشاط التجاري، و(عبدالمجيد بهيني، 1999) عن أوضاع المسلمين، و(طه هاشم، 2002) عن بغداد في رحلة ابن جبير و(محمد الرحموني، 2005) عن العجيب الغريب في رحلة ابن جبير و(عبدالواحد طه، 2005) عن التأثير المتبادل بين الغرب الإسلامي والمشرق.

وقد جاءت هذه الدراسة لتركز على جانب مهم من جوانب الرحلة، وهو المستقرات العربية الإسلامية في مسار رحلة ابن جبير من حيث ترتيبها وتتابعها ومراتبها (حجومها) وتصنيفها الطبيعي والبيئي، وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة.

6 - مجالات الدراسة:

التزم البحث في تحقيقه لأهدافه ومحتواه مجالات ثلاثة، هي:

1 - المجال الجغرافي (المكاني). وهو يتمثل بمسار الرحلة في البر العربي الإسلامي في كل من إفريقيا وآسيا (خريطة1).

2 - المجال البشري (السكاني): يتمثل بمئات المستقرات العربية الإسلامية التي مر بها ابن جبير أو استراح عندها أو أقام فيها ابتداء من مدينة الإسكندرية مروراً بالعدد الكبير منها، أبرزها القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد والموصل وحلب ودمشق، وانتهاءً بمدينة عكة.

3 – المجال التاريخي (الزماني): يتمثل في الفترة الزمنية التي قضاها ابن جبير في رحلته عبر البر العربي الإسلامي (سنة ونصف السنة) حيث ابتدأت في 29 من ذي القعدة عام 578هـ في الإسكندرية وانتهت في 22 من جمادى الآخرة عام 581هـ بمدينة عكّة.

7 – مصادر بيانات الدراسة وطرق عرضها:

اعتمد الباحث بشكل أساسي في مصدر بياناته ومعلوماته الأساسية في هذه الدراسة على رحلة ابن جبير الموسومة: رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، الطبعة الثانية الصادرة عن دار ومكتبة الهلال في بيروت لعام 1986م، كما اعتمد على رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر للطباعة والنشر في بيروت لعام 1964م (وذلك بهدف المقارنة والتأكد من أسماء المستقرات العربية الإسلامية الواردة في الطبعتين المذكورتين) فضلاً على اعتماده على العديد من المصادر والمراجع الأخرى التي تُعضد وتُبرز أهداف الدراسة، واتبع الباحث أساليب مختلفة لعرض البيانات وترتيبها بطرق تساعد على فهم الدراسة وانتظامها وتتابعها، وأهم هذه الطرق:

1 – العرض الجدولي: احتوى هذا البحث على ستة جداول تم تشكيلها من مسار الرحلة بمراحلها المتعددة.

2 – التمثيل الكارتوغرافي: نظراً لأهمية الخريطة كأداة أساسية في مختلف فروع الجغرافيا (وفي مقدمتها الفكر الجغرافي) قام الباحث برسم ست خرائط؛ الأولى عامة تشير إلى مسار الرحلة العام، والخمس الأخرى تفصيلية تشير إلى مراحل مسار الرحلة.

ولتحقيق أهداف هذه الدراسة فقد بنيت على ثلاثة محاور أساسية، هي:

أولاً – ابن جبير وعصره ورحلته المشهورة (قيد الدراسة).

ثانياً – المستقرات العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير.

ثالثاً – النتائج والتوصيات.

وهذه دراسة لكل محور من المحاور السابقة، بما يخدم أهداف الدراسة:

أولاً - ابن جبير وعصره ورحلته المشهورة:

1 - ابن جبير:

- اسمه ولقبه:

هو محمد بن أحمد بن جبير، لقّب بعدة ألقاب هي: الكناني والأندلسي (محمد زيادة، 1939م) والشاطبي[4] والبلنسي[5] وأبو الحسن وابن جبير.

- ولادته ووفاته:

ولد ابن جبير بمدينة بلنسية بالأندلس عام 539هـ[6] (1144م) (خريطة 1)، وهو ينحدر من أسرة عربية عريقة سكنت الأندلس قادمة من المشرق مع القائد المشهور بلج بن بشر بن عياض[7] عام 123هـ، استقر في آخر أيامه في مصر، وتوفي في الإسكندرية وذلك عام 614هـ (1217م).

- دراسته وعمله ورحلاته:

تعلم ابن جبير على يد أبيه وغيره من العلماء في شاطبة، وأتم دراسته بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بمدينة بلنسية على يد أبي الحسن بن أبي العيش، وقد شغف بعلوم الدين ولكن ميوله برزت أيضاً في علم الحساب وفي العلوم اللغوية والأدبية، وأظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتباً لحاكم غرناطة (كاتم سر) وقتذاك أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، أمير الموحدين، فاستوطن غرناطة. وقد عدّ ابن جبير من كبار فقهاء عصره، وكان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً، كريم الأخلاق (طاهر تونسي، 2000م)، متقناً لعلم القراءات والتفسير.

---

(4) نسبة إلى شاطبة مدينة أندلسية تقع إلى الشرق من قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة، تخرج فيها عدد كبير من الفضلاء. وللمزيد: الطالقاني، عبدالزهرة، الأضرحة والمراقد المقدسة والديارات في رحلة ابن جبير. http://www.alsabah.com/2004/09/6/people/2.htm

(5) نسبة إلى مدينة بلنسية التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة شاطبة شرقي الأندلس.
- خالد حسن الجبالي (1995). **أثر الزواج المختلط مابين العرب والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط الخلافة**. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. خريطة ملحق 1: 209.

(6) رمضان والحج في كتابات الرحالة المسلمين "رحلة ابن جبير الأندلسي"، http://www.islamonline.net/arabic/arts.

(7) بلج بن بشر بن عياض القشيري هو الوالي التاسع عشر من ولاة الأندلس من قبل الأمويين، وقد قتل عام 124هـ بالقرب من قرطبة. <http://www.hukam.net/family>

اهتم ابن جبير بالرحلات والتنقل؛ فرحل من الأندلس إلى المشرق ثلاث مرات هي[8]:

أ – الرحلة الأولى عام 578هـ وهي محور هذه الدراسة.

ب – الرحلة الثانية عام 585 هـ وانتهى منها عام 586 هـ، وقد دفعه إليها أنباء استرداد بيت المقدس من الصليبيين من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ.

جـ – الرحلة الثالثة كانت إثر وفاة زوجته التي كان يحبها حباً شديداً، فدفعه الحزن عليها إلى القيام برحلة ثالثة يروح بها عما ألم به من حزن على فراقها، فخرج من سبتة إلى مكة المكرمة وبقي فيها فترة من الزمن، ثم غادرها إلى بيت المقدس والقاهرة والإسكندرية؛ حيث توفي فيها عام 614 هـ، ومن الجدير بالذكر أن لرحلات ابن جبير تلك أهمية كبيرة[9].

– عصر ابن جبير:

عاش ابن جبير في عصر تتنازعه قوى مختلفة، وقد أثر هذا على خط سير رحلته التي استغرقت أكثر من سنتين؛ وذلك تجنباً لعبور المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، حيث كانوا يسيطرون على معظم ساحل البحر المتوسط الشرقي وأجزاء متفرقة من بلاد الشام، في حين كانت تسيطر على بلاد الأندلس وشمال إفريقيا قوى مختلفة، من أهمها الموحدون والحفصيون وبنو عبدالواد وبنو مرين[10].

وأما الأيوبيون فقد كانوا القوة الكبرى في المنطقة وسيطروا على مصر وبلاد الشام، وكانوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، وقد أشار ابن جبير لهذا القائد وذكر عدله ومآثره ومفاخره في البناء والإعمار في مصر (أبو الحسن ابن جبير، 1986).

وأما الخلافة العباسية فقد وصف ابن جبير حاضرتها بغداد فقال: "لقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهي كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص فلا حس فيها يستوقف البصر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين" (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 173).

بالإضافة إلى هذه القوى كانت هناك قوى محلية كثيرة في الموصل وخراسان، ولذا كثرت الفتن وتعددت المرجعيات العصبية والفقهية (الدينية) وقلّ

(8) http://www.wakra.net/muwehdoub.htm.

(9) نظراً لأهمية مثل هذه الرحلات فقد تداولها الشرق والغرب؛ حيث قام المؤرخ والمترجم الإنجليزي William Right بنشرها وطبعها في كتاب، وجمع عدداً كبيراً من الرحلات لرحالة وحجاج عرب وأجانب ومسلمين ومسيحيين ويهود عرف باسم Early Travellers in Palastine

– ابن جبير، الموسوعة الحرة http://wikipedia.org/wiki

(10) http://www.wakra.net/muwehdoun.htm

الأمن، وهذا سبب آخر أثر على طول رحلة ابن جبير زماناً ومكاناً[11]، ومع ذلك فقد أطلق كراتشكوفسكي على العصر الذي كتب فيه ابن جبير رحلته اسم "ذروة ما بلغه أدب الرحلات الإسلامي"[12] (إغناطيوس كراتشكوسكي، 1963).

2 - وصف عام لرحلة ابن جبير (المراحل والمدة الزمنية والمستقرات):

تعد رحلة ابن جبير (578هـ-581هـ) مصدراً مهماً للباحثين في مجالات التاريخ والاجتماع والحضارة العربية في القرنين السادس والسابع الهجريين.

ابتدأت رحلة ابن جبير من غرناطة في الأندلس يوم الإثنين الـ 19 من شوال 578 هـ إلى حصون القَبْذاق وقَبْرة، وإلى مدينة استجة وحصن أشونة وشلبر وحصن أركش، وإلى قرية القشمة، وإلى جزيرة طريف، وجميعها من أعمال الأندلس ومنها إلى قصر مصمودة ومدينة سبتة، ومنها عبر البحر المتوسط ووصل البر العربي الإفريقي (الإسكندرية) في الـ 29 من ذي القعدة عام 578هـ، ومن دراسة متأنية لرحلة ابن جبير عبر البرين الإفريقي والآسيوي، يمكن تقسيمها إلى خمس مراحل فرعية، هي: (خريطة 1، وجدول 1).

أ. البر الإفريقي (مصر والسودان).

ب. شبه الجزيرة العربية.

جـ. العراق.

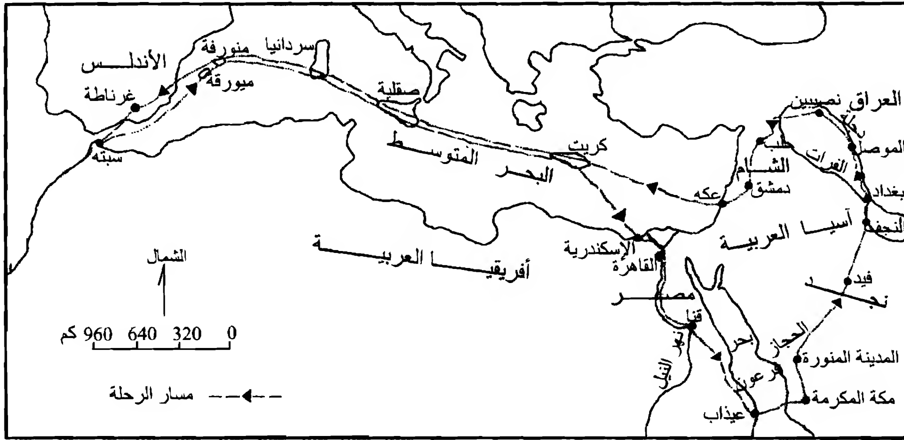
د. ديار ربيعة وبكر.

هـ. ديار الشام.

---

(11) نظراً لتدهور حالة الأمن في ذلك العصر (الحروب الصليبية) اضطر ابن جبير أن يعود إلى الأندلس (بعد تأديته فريضة الحج) من خلال نجد والعراق وديار ربيعة وبكر، وذلك بحماية مواكب ثلاثة من الخاتونات المهمة في ذلك العصر وهن:
1. الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم.
2. أم عزالدين صاحب الموصل زوج قطب الدين بن أتابك أخي نور الدين.
3. الخاتون ابنة الدقوس صاحب أصفهان من بلاد خراسان.
وللمزيد انظر: المصدر السابق: 144-145.

(12) كراتشكوفسكي Kratchkovski (1883-1951) مستشرق روسي يعد من أغزر علماء زمانه معرفة بالآداب العربية من عصر ماقبل الإسلام حتى عصره، وله أكثر من 300 مؤلف، أشهرها: دراسة في إدارة الخليفة المهدي، والرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر، ومع المخطوطات العربية، وللمزيد انظر:
- إغناطيوس كراتشكوفسكي (1963). **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**. نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم. قام بمراجعته إيغور بلياف. القاهرة، طبعة لجنة التأليف والترجمة، والطبعة الثانية دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.



خريطة (1): المسار العام لرحلة ابن جبير 578 – 581هـ

المصدر: عمل الباحث من: – رحلة ابن جبير، 1986: 17 – 244
– نصر وآخرون، 1999: 12 – 13.

جدول (1)

مراحل رحلة ابن جبير في البر العربي الإسلامي (الإفريقي والآسيوي) والمدة الزمنية وعدد المستقرات ونسبة كل منها

المرحلة	بداية المرحلة ونهايتها (هجري)	المدة الزمنية	المدة الزمنية (%)	عدد المستقرات	عدد المستقرات (%)
مصر والسودان	من الـ 29 من ذي القعدة 578 إلى الـ 25 من ربيع أول 579	3 أشهر و26 يوماً	21	39	28,68
شبه الجزيرة العربية	من الـ 4 من ربيع الآخر 579 إلى نهاية محرم 580	9 أشهر و25 يوماً	53,2	37	27,21
العراق	من نهاية محرم 580 إلى نهاية صفر 580	شهر	5,5	25	18,38
ديار ربيعة وبكر	من الـ 1 من ربيع الأول 580 إلى الـ 10 من ربيع الأول 580	10 أيام	1,8	13	9,56
الشام	من الـ 10 من ربيع الأول 580 إلى الـ 23 من جمادى الآخرة 580	3 أشهر و12 يوماً	18,5	22	16,17
المجموع		سنة و4 أشهر و16 يوماً	100	136	100

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير، 1986: 17–244.

ومن تحليل بسيط للجدول 1 نلاحظ مايلي:

أ - استغرقت المدة الزمنية لرحلة ابن جبير في البر العربي الإسلامي (الإفريقي والآسيوي) سنة وأربعة أشهر و16يوماً تماماً؛ أي مايعادل 59% من مدة الرحلة جميعها.

ب - كانت أطول مدة إقامة لابن جبير في شبه الجزيرة العربية وفي مكة المكرمة تحديداً وهذا أمر طبيعي؛ لأن هدفه الأساسي من هذه الرحلة هو الحج.

ج - بلغ عدد المستقرات التي مر بها أو استراح عندها أو أقام فيها 136 مستقراً، كان أكثر من نصفها في مصر وشبه الجزيرة العربية.

أما المراحل الخمس في رحلة ابن جبير، فهي:

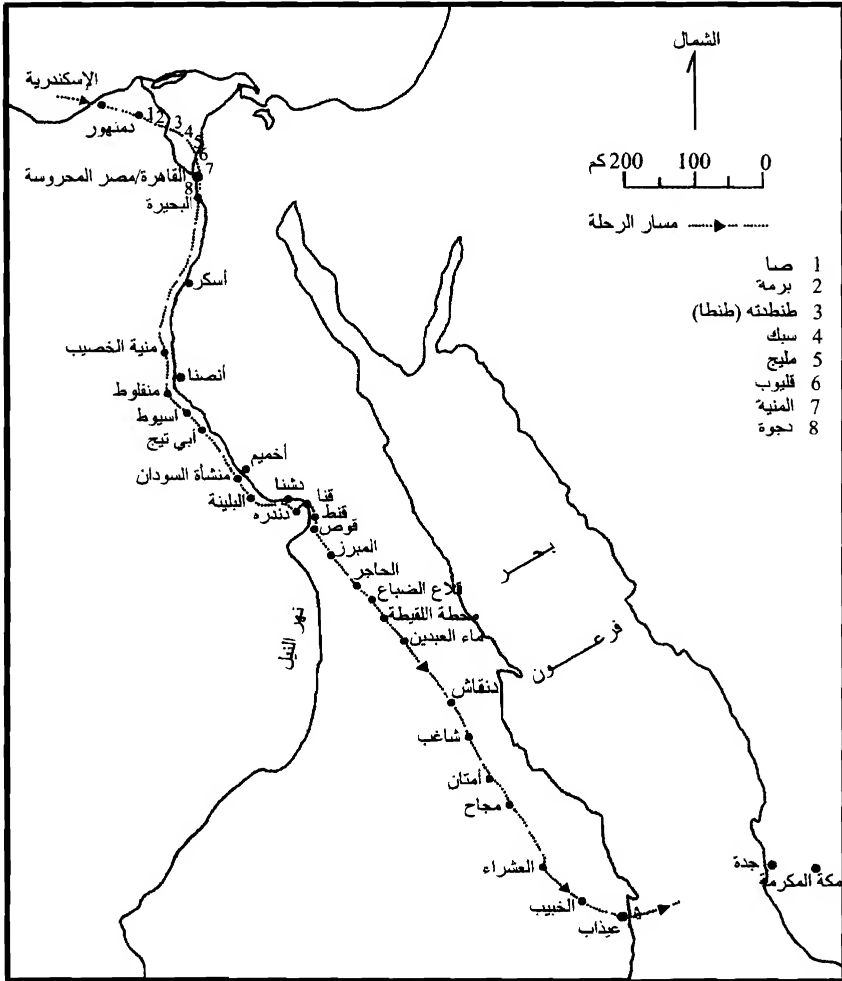
أ - البر الإفريقي في مصر والسودان: حيث دخله من الإسكندرية في الـ 29 من ذي القعدة من عام 578هـ مروراً بالعديد من المستقرات العربية الإسلامية، وعددها 39 مستقراً (محمد رمزي، 1994أ) (خريطة 2)، واستغرقت منه الرحلة مدة أربعة أشهر تقريباً، وقد أنهى هذه الرحلة بخروجه من عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر في الـ 8 من ذي الحجة للعام نفسه.

ب - شبه الجزيرة العربية: وابتدأت بوصوله إلى جدة في الـ 4 من ربيع الآخر عام 579هـ ومكوثه في مكة المكرمة لمدة ثمانية أشهر لأداء الحج ومروره بما يقارب من 37 مستقراً (حمد الجاسر، 1977م)(خريطة 3)، أهمها المدينة المنورة والعديد من المستقرات والمحطات في درب زبيدة التاريخي[13] وخرج من أرض نجد من محطة منارة القرون في آخر محرم عام 580 هـ لتستغرق مدة رحلة ابن جبير في هذه المرحلة عشرة أشهر تقريباً.

(13) يعد هذا الطريق من أهم طرق الحج والتجارة خلال العصر الإسلامي، واشتهر باسم "درب زبيدة" نسبة إلى السيدة زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد، التي أسهمت في عمارته، وقد زود بالمنافع والمرافق المتعددة كبناء أحواض المياه وحفر الآبار والسدود وإنشاء البرك وإقامة المنارات والعلامات والمشاعل والمحطات والمنازل والاستراحات والمساجد والقصور والحصون، وزود بالعلامات الإرشادية كالمسافات والأعلام، ورصفت أرضية مقاطع كثيرة منه بالحجارة، وهو يصل بين الكوفة ومكة المكرمة. ويحتوي هذا الدرب على العديد من المحطات، من أهمها: النقرة والحاجر وسميرة وفيد والأجفر وزرود وزبالة. ولمعرفة المزيد عن هذا الدرب انظر:

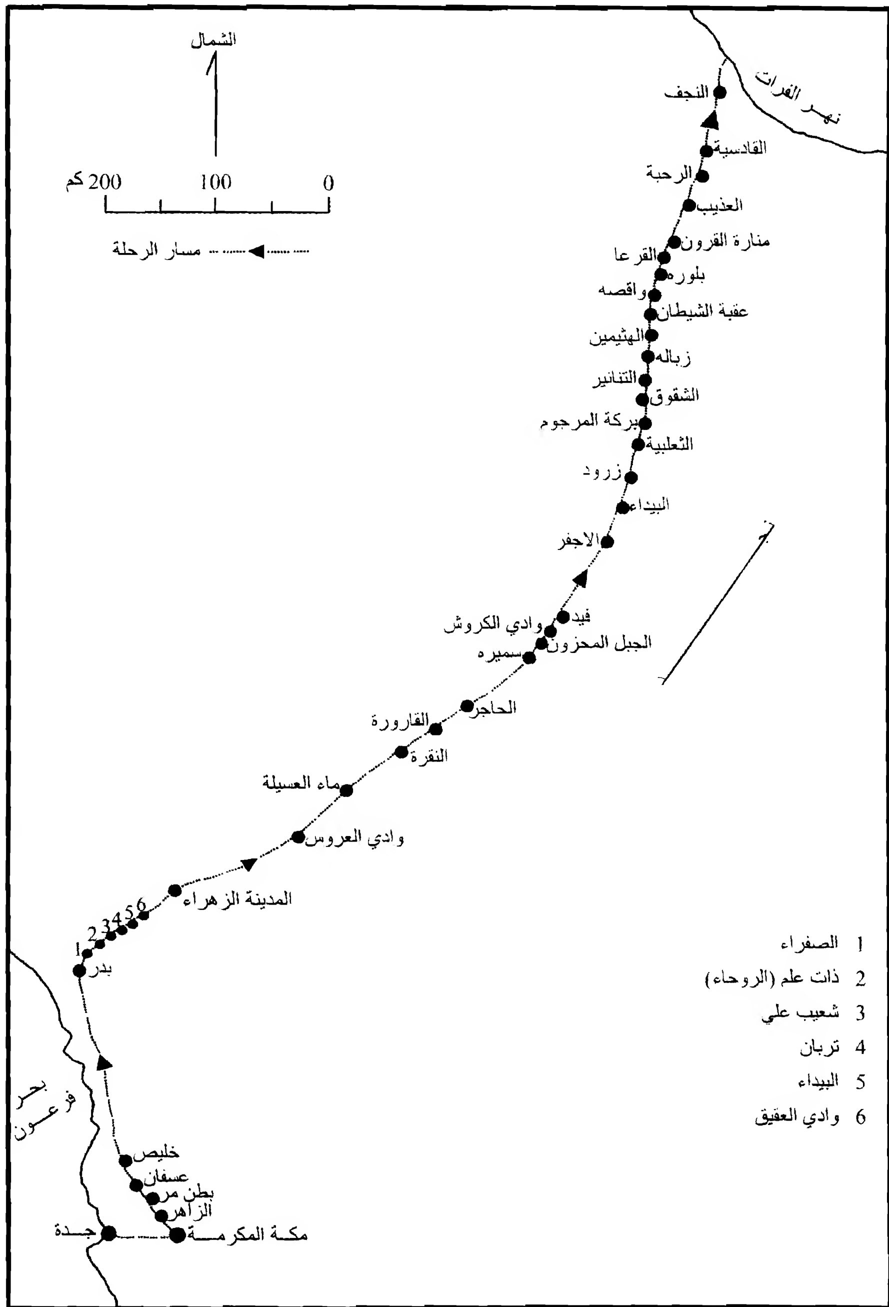
- سليمان عبدالغني المالكي (1421 هـ). **طريق ركب الحاج العراقي من الكوفة إلى مكة من الفتح الإسلامي حتى سقوط بغداد.** الرياض: دارة الملك عبدالعزيز.

جـ - أرض العراق: ودخلها ابن جبير من محطتي العذيب والرحبة القريبتين من بلدة النجف مع بداية صفر عام 580هـ، ومنها إلى الحلة والمدائن وبغداد التي أقام فيها 13 يوماً يتحسر على جمالها، وحضر العديد من مجالس علمائها، ومنها اتجه عبر المستقرات العامرة حتى دخل مدينة الموصل، وخرج من قريتي المويلحة وجدال التابعة لها مع نهاية صفر من عام 580هـ، وقد مرّ ابن جبير بـ25 مستقراً عامراً في العراق ما بين قرية ومدينة (خريطة 4) ومكث في هذه المرحلة مدة شهر.



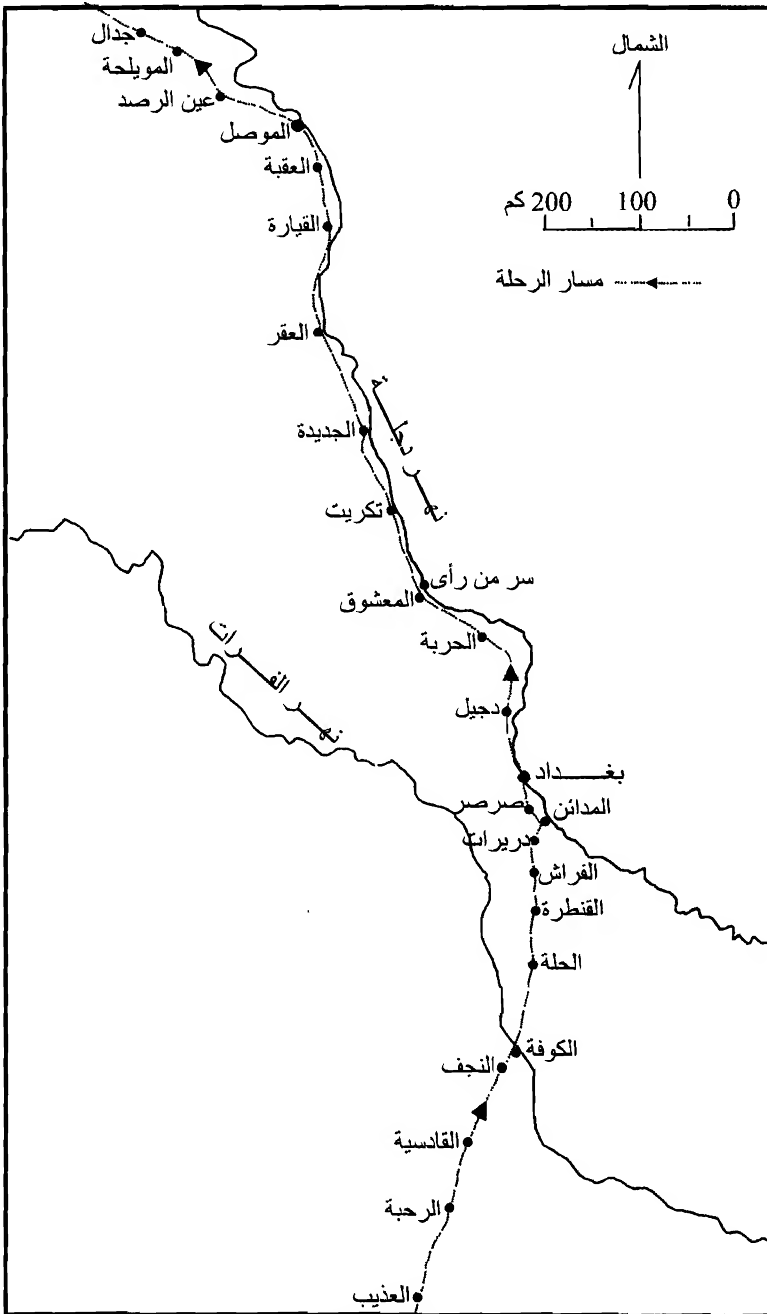
خريطة (2): المستقرات العربية الإسلامية في البر الإفريقي

المصدر: عمل الباحث من: رمزي، 1994: 204، رحلة ابن جبير، 1986: 17 - 47، نصر وآخرون، 1999: 44.



خريطة (3): المستقرات العربية الإسلامية في شبه الجزيرة العربية

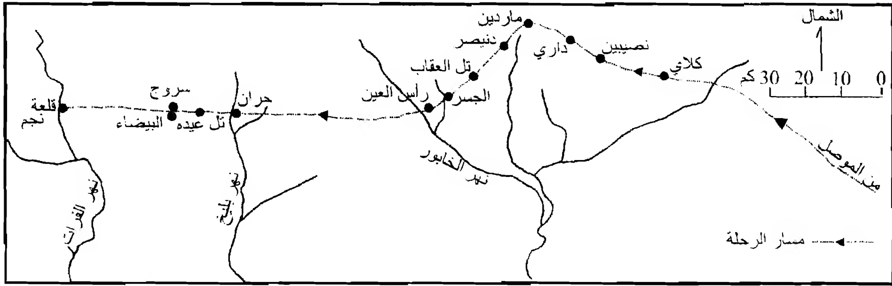
المصدر: عمل الباحث من: رحلة ابن جبير، 1986: 47 - 167، الفارسي، 1991: 119 - 120.



خريطة (4): المستقرات العربية الإسلامية في العراق

المصدر: عمل الباحث من: رحلة ابن جبير، 1986: 67 – 90، المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1989: 56.

د - ديار ربيعة وبكر الواقعة على الحدود العراقية التركية السورية (حالياً): ودخلها من قرية الكلاي (من قرى نصيبين) في الأول من ربيع الأول من عام 580هـ، ومكث في رحلته هذه مدة عشرة أيام مر خلالها بنحو 13 مستقراً (خريطة 5)، أهمها مدن نصيبين ودنيصر وماردين، وخرج من هذه الديار من محطة قلعة نجم في يوم الخميس العاشر من ربيع الأول من العام نفسه.



خريطة (5): المستقرات العربية الإسلامية في ديار بكر وربيعة

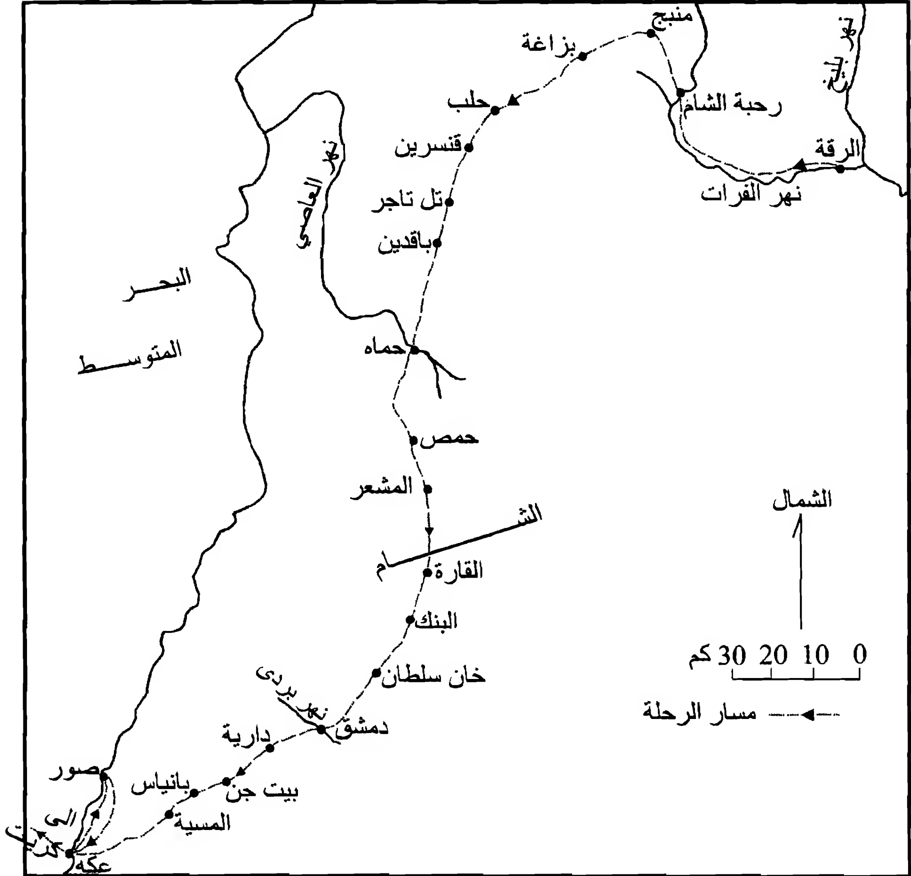
المصدر: عمل الباحث من: رحلة ابن جبير، 1986: 192 – 200، المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1989: 56.

هـ - ديار الشام: وقد ارتاحت نفس ابن جبير في هذه المرحلة لتشابه مستقراتها بالتجمعات السكانية الأندلسية حيث هاجر الكثير من العرب إلى الأندلس وأقاموا المدن التي تشبه مدن الشام[14]، وقد دخل ابن جبير الشام من مدينة الرقة في الـ 10 من ربيع الأول من عام 580 هـ، ومرّ بـ 22 مستقراً (خريطة 6)، أبرزها دمشق (التي أقام فيها شهراً و11 يوماً) وحلب وحمص وحماه، وقد أقام في هذه المرحلة ثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريباً.

وقد ركب ابن جبير البحر من مدينة عكة (الصليبية آنذاك) يوم الإثنين الـ 23 من جمادى الآخرة إلى مسينة (مسينا) من بلاد جزيرة صقلية ماراً بالعديد من الجزر، أهمها اقريطش (كريت) وخالطه وسردانية، ذاق خلالها أهوال البحر المتوسط نظراً للرياح التي كثيراً ما أخرجته عن خط سيره أحياناً وتثبيته في مكانه

(14) على سبيل المثال لا الحصر وكما ذكر ابن جبير، فإن قنسرين الشامية تشبه جيان الأندلسية حيث أصول السكان الواحدة، ومدينة حمص تشبه مدينة إشبيلية. وللمزيد انظر: أبو الحسن ابن جبير(1986)، المصدر السابق: 205-209.

أحياناً أخرى ليتأخر وصوله إلى غرناطة حتى يوم الخميس الـ 22 من محرم من عام 581، لتستغرق مدة عودته عبر البحر المتوسط ما يزيد على ستة أشهر.



خريطة (6): المستقرات العربية الإسلامية في الشام

المصدر: عمل الباحث من: رحلة ابن جبير، 1986: 201 – 244، المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1989: 54.

ثانياً – المستقرات العربية الإسلامية:

1- مواضع المستقرات ومواقعها:

من جدول (1) السابق نلاحظ أن ابن جبير في رحلته للحج مرّ بنحو 136 مستقراً عربياً وإسلامياً خلال سنة وأربعة أشهر و16 يوماً، قضاها في البر العربي الإسلامي في كل من إفريقيا وآسيا، عبر خلالها أنظمة بيئية متعددة تضاريسياً

ومناخياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وسنقتصر في حديثنا هنا على مواضع هذه المستقرات ومواقعها اعتماداً على الأنظمة البيئية الرئيسية:

أ - **مستقرات ذات مواضع ساحلية:** ابتدأت بالإسكندرية على ساحل البحر المتوسط مروراً بكل من عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر وجدة على الساحل الشرقي منه، وانتهت بالمستقرات الشامية الواقعة على ساحل البحر المتوسط الشرقي مثل صور وعكة، وامتازت المستقرات الساحلية هذه بأنها من مراتب المدن المعمورة.

ب - **مستقرات ذات مواضع نهرية:** وهي في كل من مصر والعراق وديار ربيعة والشام؛ حيث سار ابن جبير بعد عبوره الإسكندرية بمحاذاة نهر النيل ليجتاز العديد من المستقرات، وهي على التوالي: دمنهور، صا، برمة، طنطدتة (طنطا)، سبك، مليج، قليوب، المسنية، القاهرة، مصر المحروسة، دجوة، الجيزة، أسكر، منية ابن الخصيب، أنصنا، منفلوط، أسيوط، أبي تيج، أخميم، منشأة السودان، البلينة، دشنة، دندرة، قنا، ومعظمها مستقرات معمورة (خريطة 2).

وفي العراق مرّ ابن جبير بالعديد من المستقرات النهرية الواقعة بمحاذاة نهري الفرات ودجلة، وهي على التوالي: النجف، الكوفة، الحلة، القنطرة، الفراش (بمحاذاة الفرات)، وزريران، المدائن، صرصر، بغداد، قرى الدجيل، الحربة، المعشوق، سر من رأى، تكريت الجديدة، العقر، القيارة، العقيبة، الموصل (بمحاذاة دجلة) (خريطة 3)، وهناك مدينة رأس العين على نهر الخابور، ومستقرات عديدة في الشام تقع على مجار مائية، وهي الرقة، رحبة الشام، حماة، النبك، دمشق.

جـ - **مستقرات ذات مواضع شبه صحراوية:** وهي في كل من مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق، وهذه المستقرات تقع في الصحراء الشرقية من مصر الواقعة إلى الشرق من منطقة الصعيد، وهي: قفط (شرق النيل بثلاثة أميال)، قوص، المبرز، الحاجر، قلاع الضباع، محط اللقيطة، ماء العبدين، دنقاش، شاغب، أمتان، مجاج، العشراء، الخبيب (خريطة 2). وأما مستقرات شبه الجزيرة العربية فهي بطن مر، عسفان، خليص، وادي السمك، بدر، الصفراء، ذات علم، شعيب علي، تربان، البيداء، وادي العقيق، المدينة المنورة، قباء، وادي العروس وتقع جميعها في أرض الحجاز علاوة على العديد من المستقرات في أرض نجد الواقعة في منطقة حائل

بمحاذاة درب زبيدة (خريطة 3)، وهناك ثلاث محطات في العراق على مشارف دجلة، وهي: العذيب والرحبة والقادسية (خريطة 4).

د – مستقرات ذات مواضع جبلية وهضبية: وهي في المناطق المعتدلة من مسار الرحلة، وتتمثل بقرى الموصل البعيدة عن نهر دجلة، وهي عين الرصد والمويلحة وجدال، ومستقرات ديار ربيعة وبكر: الكلاي، نصيبين، دنيصر، داري، ماردين، تل العقاب، الجسر، رأس العين، حران، تل عبدو، البيضاء، سروج وقلعة نجم، أما مستقرات الشام فهي: منبج، بزاغة، الباب، حلب، قنسرين، تل ناجر، باقدين، حمص، المشعر، القارة، خان السلطان، داريا، بيت جن والمسية (خريطة 6).

2 – أصناف (رتب) المستقرات عند ابن جبير ونماذج من وصفه لها: كان ابن جبير يشير إلى رتبة المستقر الذي يمر به خلال رحلته، وقد صنف الباحث هذه المستقرات(اعتماداً على تصنيف ابن جبير) إلى أربع مراتب هي:

أ – المدينة: وفيها جميع المرافق والخدمات من مساجد وجوامع وأسواق وحمامات وخانات ومدارس، وتمتاز بازدحام سكانها، وغالباً مايوجد حولها سور لحمايتها، ونورد فيمايلي نماذج لوصف ابن جبير لبعض المدن التي مرّ بها أو أقام فيها:

– يقول ابن جبير عن مدينة الإسكندرية: "فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنّا ماشاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً". (أبو الحسن ابن جبير، 1964: 14).

– ويقول عن مدينة أسيوط: "ومنها مدينة أسيوط، وهي من مدن الصعيد الشهيرة، بينها وبين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال، وهي جميلة المنظر حولها بساتين النخيل وسورها سور عتيق". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 32).

– وقد أسهب ابن جبير في وصفه لمدينتي مكة المكرمة والمدينة الزهراء (المنورة) ووصف المساجد فيهما وأروقتهما ومشاهدهما العظيمة (أبو الحسن ابن جبير، 1964).

– ويصف مدينة الحلة قائلاً: "وهي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع مستطيلة، لم يبق من سورها إلّا حلق من جدار ترابي مستدير، لهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية، وهي قوية العمارة، كثيرة الخلق". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 169).

– ويصف مدينة تكريت: "وهي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة،

حفيلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصّة بالخلق، ويطيف بالبلد سور قد أثّر الوهن فيه". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 186).

- ويصف مدينة منبج: "أسواقها وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالي أسواقها مسقفة". (أبو الحسن ابن جبير، 1964: 223).

- أما مدينة دمشق فيصفها بأنها: "جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤلق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقررناها، وعروس المدن التي اجتليناها". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 210) ويتابع وصفه لها بأكثر من ثلاثين صفحة من رسالته.

ب - **البلدة والبلد:** وفيها مرافق وخدمات لكنها أقل من تلك التي في المدينة وهي أقل سكاناً، فعلى سبيل المثال وصف ابن جبير بلدة بزاغة المجاورة لمدينة منبج بالشام قائلاً: "وهي بقعة طيبة الثرى، واسعة الذرى، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 201).

كما وصف بلدة منفلوط قائلاً: "ومن المواضع التي اجتزنا عليها في الصعيد بعد جبل المقلة الذي ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر إلى قوص، حسبما تقدم ذكره، موضع يعرف بمنفلوط بمقربة من الشط الغربي ميامناً للصاعد في النيل، فيه الأسواق وسائر مايحتاج إليه من المرافق، وهي بلدة من الطيب ليس في الصعيد مثلها، وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته، وقد اشتهر عندهم بذلك، فالتجار يصعدون لاستجلابه". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 32).

جـ - **القرية:** وهي أصغر من البلدة، وفيها جامع أو مسجد متوسط الحجم، وسوق وخان للمبيت ومزارع ومياه، وخدماتها أقل من خدمات البلدة، ونورد هنا نماذج من وصف ابن جبير لبعض القرى التي أوردها في رحلته:

- يصف ابن جبير قرى برمة وطنطدتة (طنطا) فيقول: "واتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمة فكان مبيتنا بها، وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق، ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمس مئة المؤرخة، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنطدتة، وهي من القرى الفسيحة الآهلة، فأبصرنا بها مجمعاً حفيلاً". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 17).

- كما يصف ابن جبير جدة فيقول: "وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها

بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر". (أبو الحسن ابن جبير، 1964: 53).

– ويصف ابن جبير مجموعة قرى تقع على درب زبيدة، منها زبالة والقادسية فيقول: "واجتزنا سحراً بزبالة، وهي قرية معمورة، وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب، ومصنعان للماء وآبار". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 166)، "ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجتزنا على القادسية، وهي قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشارع من ماء الفرات". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 167).

– وعن قرية زريران يقول: "ونزلنا النهار بقرية تعرف بزريران، وهذه القرية من أحسن قرى الأرض، وأجملها منظراً وأفسحها ساحة، وأوسعها اختطاطاً، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل". (أبو الحسن ابن جبير، 1964: 192).

– وعن قرية عين الرصد يقول: "وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد، وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء، وكان مقيلاً مباركاً وفي تلك القرية خان كبير جديد". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 191).

د – المحطة (المحلة أو المنزل): وهي مكان يتركز فيه خدمة واحدة غالباً وهي التزود بالماء مثلاً أو المنام اوالاستراحة والقيلولة، وتكثر هذه المحطات في الصحراء الشرقية للصعيد، وفي أرض نجد حيث تتسع الأراضي وتطول المسافات، ونورد فيمايلي نماذج لوصف ابن جبير لبعض المحطات:

– يصف ابن جبير محطات قلاع الضياع ومحط اللقيطة ودنقاش ومجاج قائلاً: "وقلنا بموضع بقلاع الضياع، ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة، كل ذلك في صحراء لا عمار فيها، ثم غدونا يوم الخميس فنزلنا على ماء ينسب للعبدين، ويذكر أنهما ماتا عطشاً قبل ان يرداه فسمي ذلك الموضع بهما وقبراهما به، رحمهما الله، ثم تزودنا منه الماء لثلاثة أيام، فلما كان يوم الإثنين الموفي عشرين منه نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش، وهي بئر معينة يرد فيها من الأنعام والأنام مالم يحصه إلا الله عز وجل". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 38).

– وعن محطة مجاج يقول: "ونزلنا على ماء بموضع يعرف مجاج بمقربة من الطريق ظهر يوم الإثنين المذكور، ومنه تزودنا بالماء لأربعة أيام". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 40).

واشتهرت أرض شبه الجزيرة العربية (وخاصة نجد) بالعديد من المحطات التي وصفها ابن جبير، منها: الصفراء وفيد والشقوق، وفي ذلك يقول: "وكان نزولنا في الصفراء إثر صلاة العشاء الآخرة، فأصبحنا يوم السبت، مستهل الهلال، مقيمين مريحين بها، ليتزود الناس منها بالماء ويأخذوا نفس استراحة إلى الظهر". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 149).

"وأصبحنا على فيد يوم الأحد، وهي حصن كبير مبرج مشرف في بسيط من الأرض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان، وهو معمور بسكان من الأعراب، ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 163).

"وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذباً صافياً، فأراق الناس مياههم وجددوا مياهاً طيبةً واستبشروا بكثرة الماء، وجددوا شكر الله على ذلك". (أبو الحسن ابن جبير، 1986: 165).

3 – دراسة تحليلية لأصناف المستقرات:

من دراسة متأنية لأصناف المستقرات استطاع الباحث أن يحدد مراتبها ويحصر عدد كل منها ونسبته، وذلك في كل مرحلة من مراحل رحلة ابن جبير، وهي على النحو التالي:

- المستقرات العربية الإسلامية في البر الإفريقي (مصر والسودان): ويظهرها جدول 2 والخريطة 2:

جدول (2)
المستقرات العربية الإسلامية في البر الإفريقي (مصر والسودان)

رتبة المستقر	العدد	%	أسماء المستقرات
مدينة	12	30,8	الإسكندرية، القاهرة، مصر، منية ابن الخصيب، أسيوط، أخميم، دشنة، دندرة، قنا، قفط، قوص، عيذاب.
بلدة، بلد	5	12,8	دمنهور، قليوب، المنية، منفلوط، أبي تيج.
قرية	8	20,5	برمة، طنطدتة (طنطا)، مليج، الجيزة، أسكر، أنصنا، منشأة السودان، البلينة.
محطة	14	35,9	صبا، سبك، دجوه، المبرز، قلاع الضياع، محط اللقيطة، ماء العبدين، دنقاش، شاغب، أمتان، مجاج، العشراء، الخبيب.
المجموع	39	100	

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير، 1986: 17-47.

وأبرز ما يلاحظ من الجدول 2 والخريطة 2 مايلي:

أ – ارتفاع نسبة المستقرات العامرة من رتبة قرية فأكثر؛ حيث تصل نسبتها إلى 64% من إجمالي المستقرات التي مرّ بها ابن جبير في مصر.

ب – يصل عدد المدن إلى 12 مدينة عامرة (30,8%)، وهي الإسكندرية والقاهرة ومصر ومنية ابن الخصيب وأسيوط وأخميم ودشنة ودندرة وقنا وقفط وقوص وعيذاب، وتقع معظم هذه المدن على الجانب الغربي من نهر النيل، ويرجع ارتفاع نسبة التجمعات السكانية المعمورة إلى وجود نهرالنيل، حيث المياه الوفيرة والتربة الخصبة.

ج – يصل عدد البلدات إلى خمس، تشكل ما نسبته 12,8%، وهي دمنهور وقليوب والمنية ومنفلوط وأبي تيج.

د – تكثر المحطات في الصحراء الشرقية الواقعة شرقي الصعيد؛ حيث بلغت نسبتها 36% تقريباً، وكان الغرض منها التزود بالمياه أو الاستراحة أو النوم لفترة زمنية قصيرة بغرض الراحة من عناء السفر.

– المستقرات العربية الإسلامية في شبه الجزيرة العربية (الحجاز ونجد): ويظهرها الجدول 3 والخريطة 3:

جدول (3)
المستقرات العربية الإسلامية في شبه الجزيرة العربية (الحجاز ونجد)

رتبة المستقر	العدد	%	أسماء المستقرات
مدينة	2	5,4	مكة المكرمة، المدينة المنورة
بلدة، بلد	–	–	–
قرية	6	16,2	جدة، بدر، سميرة، فيد، زبالة، واقصة
محطة	29	78,4	بطن مر، عسفان، خليص، وادي السمك، محطة، ذات علم، شعيب علي، تربان، البيداء، وادي الصفيق، وادي العروس، ماء العسيلة، النقرة، القارورة، الحاجر، الجبل المخروق، وادي الكروش، الأجفر، زرود، الثعلبية، بركة المرجوم، الشقوق، التنانير، الهيثميين، عقبة الشيطان، بلورة، القرعا، منارة القرون
المجموع	37	100	

المصدر: عمل الباحث، من رحلة ابن جبير، 1986: 47–167.

ومن دراسة الجدول 3 والخريطة 3 يلاحظ مايلي:

أ - ارتفاع نسبة محطات القوافل، وذلك لما تمتاز به أرض نجد من اتساع شاسع وظروف طبيعية وبشرية لا تساعد على قيام المدن، ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه المحطات تقع على درب زبيدة.

ب - ارتفاع نسبة المدن في الحجاز وقلتها في نجد.

ج - تأتي القرى في المرتبة الثانية بعد المحطات من حيث النسبة، قريتان منها في الحجاز، وهما جدة وبدر، وأربع قرى في أرض نجد، وهي سميرة وفيد وزبالة وواقصة.

د - تخلو شبه الجزيرة العربية من وجود البلدات.

- المستقرات العربية الإسلامية في العراق: ويظهرها الجدول 4 والخريطة 4:

جدول (4)
المستقرات العربية الإسلامية في العراق

رتبة المستقر	العدد	%	أسماء المستقرات
مدينة	6	24	الكوفة، الحلة، بغداد، سر من رأى، تكريت، الموصل
بلدة، بلد	1	4	النجف
قرية	14	56	القادسية، القنطرة، الفراش، زريران، المدائن، صرصر، دجيل، الحربة، الجديدة، العقر، العقيبة، عين الرصد، المويلحة، جدال
محطة	4	16	العذيب، الرحبة، المعشوقة، القيارة
المجموع	25	100	

المصدر: عمل الباحث، من رحلة ابن جبير، 1986: 167-191.

يلاحظ من دراسة الجدول 4 والخريطة 4 مايلي:

أ - ارتفاع نسبة المستقرات العامرة بالسكان والخدمات؛ حيث تصل نسبتها إلى 84%، وهذا يرجع لوفرة عوامل المياه والتربة الخصبة حول نهري دجلة والفرات، كما أن العراق قبل تلك الفترة كان يشكل مركز الحكم للعالم الإسلامي ممثلاً بالدولة العباسية.

ب - تحتل القرى المرتبة الأولى من حيث عددها (14 قرية) ونسبتها (56%).

ج – يوجد بلدة واحدة في هذه المرحلة وهي النجف.

د – تقع المحطات على مشارف العراق بين نجد ونهر الفرات.

– المستقرات العربية الإسلامية في ديار ربيعة وبكر: ويظهرها الجدول 5 والخريطة 5:

جدول (5)

المستقرات العربية الإسلامية في ديار ربيعة وبكر

رتبة المستقر	العدد	%	أسماء المستقرات
مدينة	7	53,8	نصيبين، دنيصر، داري، ماردين، رأس العين، حران، سروج
بلدة، بلد	–	–	–
قرية	4	30,8	الكلاي، تل العقاب، الجسر، البيضاء
محطة	2	15,4	تل عبدة، قلعة نجم
المجموع	13	100	

المصدر: عمل الباحث، من رحلة ابن جبير، 1986: 192–200.

يلاحظ من دراسة الجدول 5 والخريطة 5 مايلي:

أ – ارتفاع نسبة المستقرات المعمورة؛ حيث تصل إلى 85,6، ويرجع ذلك إلى وفرة المياه وخصوبة التربة واعتدال المناخ، وهي أكثر المراحل التي ترتفع فيها نسبة المدن.

ب – تأتي المدن في مقدمة المستقرات من حيث عددها (7 مستقرات) ونسبتها (53,8%).

ج – لا يوجد بلدات في هذه المرحلة في رحلة ابن جبير.

د – يوجد محطتان في هذا المسار؛ هما: تل عبدة وقلعة نجم، وتقعان بين دياربكر وبلاد الشام.

– المستقرات العربية الإسلامية في بلاد الشام: ويظهرها الجدول 6 والخريطة 6:

جدول (6)

المستقرات العربية الإسلامية في بلاد الشام

رتبة المستقر	العدد	%	أسماء المستقرات
مدينة	10	45,5	الرقة، رحبة الشام، منبج، حلب، حماة، حمص، دمشق، بانياس، عكة، صور
بلدة، بلد	1	4,5	بزاغة
قرية	9	40,9	الباب، قنسرين، تل تاجر، المشعر، القارة، النبك، دارية، بيت جن، المسية
محطة	2	9,1	باقدين، خان السلطان.
المجموع	22	100	

المصدر: عمل الباحث، من رحلة ابن جبير، 1986: 201-244.

يلاحظ من دراسة الجدول 6 والخريطة 6 مايلي:

أ - ارتفاع نسبة المستقرات العامرة بالسكان بشكل لافت للانتباه حيث تصل إلى 91,9%، وهي أعلى نسبة في جميع مراحل الرحلة، وهذا يرجع لوفرة عوامل المياه والتربة واعتدال المناخ والموقع الجغرافي وقربها من البحر الأبيض المتوسط.

ب - يوجد في هذه المرحلة بلدة واحدة وهي بزاغة القريبة من نهر الفرات.

ج - يصل عدد القرى في هذه المرحلة إلى تسع قرى، تشكل 40,9% من اجمالي المستقرات.

د - يوجد محطتان فقط في هذه المرحلة، تقع الأولى في الثلث الأول من الطريق وهي باقدين (في منتصف الطريق بين مدينتي حلب وحماة) والأخرى تقع في الثلث الأخير قريباً من دمشق وهي خان السلطان.

ثالثاً - النتائج والتوصيات: بعد دراسة خط سير رحلة ابن جبير وحصر المستقرات العربية الإسلامية التي مر بها في أثناء هذه الرحلة وإجراء تصنيف لمراتب هذه المستقرات توصل الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

- **النتائج:**

1 – ابن جبير رجل متعدد المواهب؛ فهو ناثر وشاعر ورحالة جغرافي، ضليع في علم القراءات والفقه والتفسير وعلوم الشريعة.

2 – رحلة ابن جبير هي الرسالة الموسومة بـ "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" على درجة كبيرة من الأهمية في أدب الرحلات، وهي من أهم المصادر الرئيسة التي اهتم بها المتأخرون والمستشرقون والباحثون في مجال التاريخ والجغرافيا والاجتماع والحضارة العربية الإسلامية في القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث دون خلالها كل ما مر به من مدن ومشاهد وعجائب وغرائب وأحوال السكان السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وقد اهتم بشكل خاص بوصف المشاهد الدينية من مساجد وجوامع ومقامات وأضرحة ومزارات وقبور ومراقد، وخاصة في كبريات المدن التي زارها، مثل القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد وحلب ودمشق.

3 – استغرقت رحلة ابن جبير سنتين وثلاثة أشهر تماماً، منها سنة ونصف السنة تقريباً في البر العربي الإفريقي والآسيوي ونحو عشرة أشهر في البحر الأبيض المتوسط، منها سبعة أشهر في أثناء عودته من مدينة عكة، وقد مكث أطول مدة في كل من مدينة مكة المكرمة حيث أقام فيها ثمانية أشهر، وعشرة أيام، أي ما يعادل ثلث مدة الرحلة، وأقام في دمشق شهراً وأحد عشر يوماً، وفي القاهرة عشرين يوماً، وفي بغداد ثلاثة عشر يوماً، والإسكندرية تسعة أيام، والموصل سبعة أيام، والمدينة المنورة خمسة أيام، لتصل المدة التي أقامها في كبريات المدن العربية الإسلامية هذه ومدن أخرى (حلب وصور وعكة) أكثر من سنة. وأما المدة الباقية (نحو نصف السنة) فقد قضاها متنقلاً بين المستقرات العربية الإسلامية في البر العربي الإسلامي في كل من إفريقيا وآسيا.

4 – كان ابن جبير يتجنب في خط سير رحلته الاقتراب من الأماكن التي يسيطر عليها الصليبيون؛ ولذلك اضطر للسفر عبر البر العربي في إفريقيا من الإسكندرية وبمحاذاة نهر النيل إلى مدينة عيذاب على البحر الأحمر، ومنها إلى مكة المكرمة؛ فاعتمر وحج وسافر عبر الحجاز ونجد (درب زبيدة)، وإلى النجف وبغداد وتكريت والموصل واتسعت دائرة سفره عبر بلاد ربيعة وبكر (شمال سوريا وتركيا حالياً)، ومنها إلى بلاد الشام إلى حلب وحمص ودمشق، واضطر للعودة من ساحل البحر المتوسط الذي كان يحتله الصليبيون – وتحديداً من مدينة عكة – لتصل

ذروة المعاناة في رحلته تلك مع ما تبقى عليه من رحلة العودة من عكة وعبر جزر البحر المتوسط إلى مدينة غرناطة، حيث استغرقت رحلته البحرية تلك مايقارب سبعة أشهر تعرض خلالها لأشد أنواع الأهوال والمعاناة الطبيعية (من البحر) والبشرية (من الصليبيين).

5 - استطاع الباحث أن يحصر عدد المستقرات العربية الإسلامية التي مر بها ابن جبير؛ حيث بلغ عددها الإجمالي 136 مستقراً صنفت في أربع مراتب، هي:

أ - المدن: وعددها 37، كان معظمها في مصر (12)، والشام (10)، وهناك 7 مدن في بلاد ربيعة وبكر، و6 مدن في العراق، ومدينتان فقط في الحجاز ونجد (مكة المكرمة والمدينة المنورة).

ب - البلدات: وعددها 7 فقط؛ في مصر (5)، وبلدة في العراق (النجف)، وبلدة في الشام (بزاغة).

ج - القرى: وعددها 41 قرية؛ كان معظمها في العراق (14)، والباقي في الشام (9)، ومصر (8)، والحجاز ونجد (6)، وبلاد ربيعة وبكر (4).

د - المحطات والمنازل (أماكن الاستراحة): وعددها 51 محطة؛ كان معظمها في شبه الجزيرة العربية وخاصة في نجد (29)، ومايميز هذه المحطات أنها كانت لغايات التزود بالماء أو النوم فقط وكانت في مناطق شبه صحراوية.

6 - تصنف المستقرات العربية الإسلامية التي مرّ بها ابن جبير، بحسب مواضعها الطبيعية على النحو التالي:

أ - مستقرات بحرية(ساحلية) مثل الإسكندرية وصور.

ب - مستقرات نهرية حول أنهار النيل ودجلة والفرات والعاصي، مثل القاهرة ودمنهور وأسيوط وقنا والنجف وبغداد والموصل والرقة ودمشق وغيرها.

ج - مستقرات بطون الأودية الجافة، ومن أشهرها مكة المكرمة.

د - مستقرات صحراوية وشبه صحراوية، وخاصة في كل من مصر (بين مدينتي قنا على نهر النيل وعيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر) والحجاز ونجد من المدينة المنورة وحتى واقصة على مشارف العراق.

هـ - مستقرات هضبية وجبلية، وخاصة في بلاد ربيعة وبكر والشام، مثل نصيبين وماردين وحران ومنبج وحمص وحماة وقنسرين وخان السلطان، وغيرها.

7 – تصنف المستقرات العربية الإسلامية التي مرّ بها ابن جبير بحسب التصنيف البيئي (العمراني) إلى:

أ – مستقرات حضرية خدمية: أبرزها في مصر (القاهرة) والحجاز (مكة المكرمة) والعراق (الموصل) وديار ربيعة وبكر (نصيبين) والشام (دمشق).

ب – مستقرات ريفية زراعية: منها في مصر (القرى الواقعة على ضفاف النيل)، وشبه الجزيرة العربية (سميرة، زبالة وواقصة)، والعراق (النجف والقرى الواقعة على ضفتي دجلة والفرات)، وفي ديار ربيعة وبكر (الكلاي وتل العقاب والجسر والبيضاء)، وفي الشام (بزاغة والباب وقنسرين ودارية وبيت جن والمسية).

ج – مستقرات بدوية: وهي من مرتبة محطات ومنازل وأماكن للاستراحة أو التزود بالمياه، وكانت تتعامل مع الحجاج بمفهوم المقايضة؛ حيث كانت هذه المحطات تزود الحجاج بما يحتاجون إليه من مواد غذائية بسيطة، ومن أشهرها تلك المحطات الواقعة على درب زبيدة في نجد وخاصة في فيد والأجفر وزرود وغيرها.

8 – تشابهت المدن العربية الإسلامية التي مرّ بها ابن جبير بمورفولوجية واحدة، كان القاسم المشترك فيها مكونات أساسية عديدة، أهمها: سور المدينة والمسجد الجامع الكبير والسوق، علاوة على مجموعة من المرافق والبنى التحتية التي تقدم خدمات عامة كالمارستانات والخانات والمدارس والحمامات وغيرها.

9 – طرأ تغيّر كبير حالياً على حجوم العديد من المستقرات العربية الإسلامية التي مرّ بها ابن جبير حيث:

أ – تراجعت مرتبة العديد منها، وخاصة تلك الواقعة في مصر بين مدينتي قنا وعيذاب؛ حيث تحول عنها طريق الحاج، وهذا ينطبق على جميع المستقرات الواقعة حول درب زبيدة في نجد، وذلك للسبب نفسه.

ب – تضخمت بعض المستقرات لتنتقل من مرتبة محطة أو قرية أو بلدة لتصبح مدينة مليونية حالياً، ومن أبرز الأمثلة على ذلك مدينة جدة في الحجاز.

– التوصيات:

يوصي الباحث من خلال هذه الدراسة بما يلي:

1– الاهتمام بدراسة التراث الجغرافي وكل مايتعلق به من مخطوطات وأجهزة وخرائط ورحلات، قام بها الجغرافيون العرب والمسلمون؛ وذلك لإبراز الدور العربي

الإسلامي في الحضارة الإنسانية، وهذا دور يقع على عاتق الأقسام الأكاديمية المختلفة في الجامعات العربية والإسلامية.

2- إعادة إحياء المستقرات العربية الإسلامية التي اندثرت مع الأيام؛ وذلك لتحول طريق الحج عنها، من خلال تجديد مقاطع الطرق التي اندثرت وخاصة:

أ - طريق الصحراء الواقعة عبر طريق قنا - قفط - قوص - المبرز - الحاجر - محط اللقيطة - ماء العبدين - دنقاش - شاغب - أمتان - مجاج - العشراء - الخبيب - عيذاب.

ب - درب زبيدة التي اندثرت بين الكوفة والمدينة المنورة مروراً بالكوفة - واقصة - زبالة - الثعلبية - زرود - الأجفر - فيد - وادي الكروش - الجبل المخروق - الحاجر - القارورة - النقرة - وادي العروس.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذين الطريقين يمكن أن يصبحا طرقاً مهمة للحج تنمو من خلالها العديد من المستقرات التي اندثرت، كما يمكن أن تسهم في ازدهار السياحة البيئية التي بدأت تأخذ العديد من الدول بتنميتها، لما لها من أثر كبير في زيادة الدخل القومي و تعزيز التنمية المستدامة[15].

3- دراسة موضوعات في رحلة ابن جبير، يتناولها أحد بالدراسة على الرغم من أهميتها، وهو:

1 - مورفولوجية المدينة العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير.

2 - الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعرب من رحلة ابن جبير.

3 - نوعية الحياة في المستقرات العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير.

4 - دلالة أسماء المستقرات العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير.

5 - المستقرات العربية الإسلامية المندرسة والحالية في رحلة ابن جبير.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تهدف إلى حصر المستقرات التي اندرست والوقوف على أسباب ذلك، وحصر المستقرات القائمة إلى الآن، وإجراء دراسة مقارنة بما طرأ على هذه المستقرات في رتبها (تراجعاً أو تقدماً)، وتوضيح الفروق بين الأسماء القديمة وما طرأ عليها من تبدل.

(15) وللمزيد عن السياحة البيئية وأهميتها انظر:
خليف غرايبة (2008)، **السياحة البيئية**، دار يافا، عمان.

المراجع:

المراجع العربية:

إبراهيم شمس الدين (2003). **رحلة ابن جبير**. دار الكتب العلمية.

إبراهيم عوض (1992). **رحلة ابن جبير الأندلسي**. دراسة في الأسلوب. القاهرة: مطبعة الأوفست الحديث.

أبو الحسن ابن جبير (1964). **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير**. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

أبو الحسن محمد بن أحمد (1986). **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير**، ط2. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

إغناطيوس كراتشكوفسكي (1963). **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**. نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم. قام بمراجعته ايغور بلياف، القاهرة، طبعة لجنة التأليف والترجمة، والطبعة الثانية دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

حسين نصّار (1955). **رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية**، القاهرة، مكتبة مصر.

حمد الجاسر (1977). **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، ط2، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

خالد حسن الجبالي (1995). **أثر الزواج المختلط مابين العرب والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط الخلافة**. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. خريطة ملحق 1.

خليف غرايبة (1998). **الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون**. إربد: مطبعة الروزنا.

خليف غرايبة (2008). **السياحة البيئية**. عمّان، دار يافا.

زكي الفارسي (1991). **أطلس المملكة العربية السعودية**، ط2، جدة.

سليمان عبدالغني المالكي (1421 هـ)، **طريق ركب الحاج العراقي من الكوفة إلى مكة من الفتح الإسلامي حتى سقوط بغداد**، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز.

صبري فارس الهيتي وإبراهيم المشهداني وسعدي محمد صالح السعدي (1985). **الفكر الجغرافي وطرق البحث**. الموصل: مديرية مطبعة الجامعة.

صلاح الدين الشامي وزين الدين عبدالمقصود (1982). **جغرافية العالم الإسلامي**. الإسكندرية: منشأة المعارف.

طاهر تونسي (2000). **مع ابن جبير في رحلته**. صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

طه هاشم (2002). بغداد في رحلة ابن جبير الأندلسي. **مجلة آفاق عربية**. ع5-6.

عبدالعال الشامي (1981). **جهود الجغرافيين في رسم الخرائط**. الكويت: جامعة الكويت. نشرة الجمعية الجغرافية الكويتية.

عبدالقدوس الأنصاري (1976). **مع ابن جبير في رحلته**. ط1. القاهرة: المطبعة العربية الحديثة.

عبدالكريم عبدالرحمن خليفة (1998). الأردن وفلسطين عند الجغرافيين والرحالة العرب: المقدسي وابن جبير وابن بطوطة. **مجلة مجمع اللغة العربية**. ج82: 69-92.

عبدالمجيد بهيني (1999). أوضاع المسلمين تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة ابن جبير: النصوص - التوظيف - الواقع التاريخي. **مجلة التاريخ العربي**: ع11: 177-197.

عبدالواحد ذنون طه (2005). **الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي والمشرق**. ط1. الرباط: دار الكتاب الجديد المتحدة.

كامل كيلاني (1950). **ابن جبير في مصر والحجاز**. القاهرة: دار المعارف.

محمد الرحموني (2005). الدين والأيديولوجيا: **جدلية الديني والسياسي في الإسلام والماركسية**.. بيروت: دار الطليعة: 144-162.

محمد رمزي (1994أ). **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية**. القسم الثاني. الجزء الثالث. مديريات الجيزة وبني سويف والفيوم والمنيا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محمد رمزي (1994ب). **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية**. القسم الثاني، الجزء الثالث، مديريات أسيوط وجرجا وقنا وأسوان ومصلحة الحدود، **القاهرة، الهيئة المصرية العامة** للكتاب.

محمد زينهم عزب (2000). **رحلة ابن جبير- ضبط ووضع فهارس، القاهرة**: دار المعارف.

محمد **العاملي** (1999). جوانب من النشاط التجاري المغربي من خلال الرحلة الحجية، رحلة ابن جبير نموذجاً. مجلة المغرب، المشرق، بني ملال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

محمد سيد نصر ونقولا زيادة (1999). **أطلس العالم**، بيروت: مكتبة لبنان.

المركز الجغرافي الملكي الأردني (1989). **الأطلس المدرسي الأردني**. ط1، عمان، مطابع المركز الجغرافي.

محمد مصطفى زيادة (1939). **رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة**. المعهد الخليفي للأبحاث المغربية.

مكلة أماري (1994). **مقتطف من رحلة محمد ابن جبير إلى المشرق**.

William Wright. W (1852).*The Travels of Ibn Jubair*. Univefsity library of Leyden. Leyden: E.J.Brill.

< http://ar.wikipedia.org/wiki > .

< http://www.alsabah.com/2004/09/6/people/2.htm > .

< http://www.balagh.com/mosoa/garb > .

< http://www.hukam.net/family > .

http://www.islamonline.net/arabic/arts.

< http://www.maroctimes.com/vb/showthread.php > .

< http://www.wakra.net/muwehdoun.htm > .

< http://wikipedia.org/wiki > .

قدم في: مارس 2008

أجيز في: يناير 2009

The Arab-Islamic Settlements in Ibn Jubeir's Journey (578 A.H. - 581 A.H.)

Khlaif M. Gharaybeh*

Ibn Jubeir, the Arab Muslim traveler, set out on his pilgrimage to Makka from Granada in Andalusia on the 19^{th} Shawal, 578 A.H., crossing the Mediterranean, to Arab Islamic lands in Africa and Asia for two years and three months, passing numerous Arab Islamic settlements of different sizes, functions, and political, social and ethical conditions.

This study traces Ibn Jubeir's journey to identify the number of those settlements, classify them, and draw maps of the course of the journey in Africa and Asia. The researcher uses the Vertical Treatment approach to trace the time and place of the course of the journey.

The study came up with several findings, the most important of which are: - Classifying Arab Islamic settlements into four categories: caravan stations, villages, towns and cities. - With prominent components like the wall, congregational mosque and buildings reflecting the local environment, the Arab Islamic city had a unique character in its planning and factors concerning its evolution.

Key words: Settlements, Journeys, Pilgrimage Routes, Settlements, Ranks, Sites, locations, African Asian land.

* Dept. of Basic Sciences, Ajloun university college, AL-Balqa Applied university, Jordan.